المحاضرة الثانية: نشأة علم أُصُول الدعوة وفضله وأهميته وثمرته

أولاً: نشأة علم أُصُول الدَّعوة:

إنَّ مفردات هذا العلم قديمة قدم الدعوة، فعلم الدعوة لم ينفك عن العمل في منهج الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، الذين ختمهم الله بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ مِن بعده الصحابة الكرام رضي الله عنهم، ثُمَّ التابعون لهم بإحسان، فنشروا الإسلام، وبلغوا فيه كلَّ مبلغ.

وعندما بسط الإسلام ظله، وسطع نوره على الدنيا، ودانت له الأرض اتجهت العلوم وجهة التأصيل والتقعيد، وكان علم الدعوة أبواباً منثورة في كتب السنة ودواوينها حيناً، وفي كتب التفسير وشروحاتها حيناً، وكتب السير والتاريخ والتراجم أحياناً أخرى، ولم يجتمع من ذلك علم بالمعنى الاصطلاحي للعلم؛ لأن مبعث تأصيل العلوم وإفرادها بالتصنيف هو الحاجة إليها، ولم تكن الدعوة إذ ذاك عملاً مهجوراً ولا أمراً مستوراً، إذ كان المجتمع الإسلامي كله ناشطاً بالدعوة إلى الله تسرى روحها في أوصاله وتتنفس رحيقها جنباته، فقد كانت دولة الإسلام آنذاك ترى الدعوة إلى الله أُولى وظائفها في الداخل ومحور علاقاتها في الخارج، بل كانت ترى الدعوة سرَّ وجودها واستمرارها، فترسل الدعاة، وتستقبل الوفود، وتدعو بالحسبة والتغيير وتزيل العقبات إمام الدعوة، فكان المجتمع أفراداً وجماعات حكاماً ومحكومين يتحقق فيهم إجمالاً قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[الحج: ٤١].

وإذا أردنا أن نؤشر بداية التصنيف في هذا العلم، فيمكن أن نقول إنَّه أخذ في بادئ الأمر سمة الوعظ والتذكير والمخاطبة بما يُرقق القلوب ويُزهد في الدنيا ويُرغب في الآخرة، بسبب بُعْدِ الناس عن الله تعالى وانشغالهم بالدنيا، حيث عرفت أبواب الرقائق في عامة كتب الحديث كالصحاح والسنن، ثُمَّ أفردت أبواب الزهد بكتب مستقلة كالزهد للإمام ابن المبارك (ت١٨١هـ)، والزهد للإمام أحمد (ت٢٤١هـ)، ونحو ذلك مما يشتمل على محاسبة النفس وتهذيبها، ثُمَّ توالى التأليف في ذلك فضرب الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ) بسهم وافر في كتابه: منهاج العابدين، وأبواب عدة من كتابه: إحياء علوم الدين، ثُمَّ جاء ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) بكتابه الوعظي: (التبصرة)، وكتابه منهاج القاصدين، وقد صاحب ذلك المؤلفات في

العقائد والردود على أصحاب الديانات والنحل الأخرى، وما أُورد على الأمة من شبهات وتشكيك في دينها وعقيدتها.

ولكن الأمة بدأت بالانحدار والتراجع لأسباب عدة، داخلية وخارجية، فضُيِّعتْ الواجبات، واتُبعتْ الشهوات، وأُهمل العلم والعمل على مختلف المستويات، ولم تستفق الأمة إلا على استلاب دولتها، وتفرّق شملها، وتغيّر حالها، واستبدالها بالقوة ضعفاً، وبالعزة ذلاً، وبالغنى فقراً.

إلا أنَّ السبات وإن طال، لا سيما بعد تنحية الشريعة عن واقع الحياة، فلابد – بإذن الله تعالى – من يقظة، والغفلة وإن استمرت فلابد من صحوة، فتنادى المصلحون والدعاة من كل جانب لإعادة استئناف الحياة الإسلامية الحقة؛ ليعود المسلمون إلى سابق عهدهم، وسالف مجدهم، فعادت الدعوة لتبعث الأمة من جديد، فكتب الدعاة والعلماء يشخصون الدَّاء، ويصفون الدواء، وبرزت الحاجة إلى هذا العلم بشدة نظراً لما اكتنف الأمة من جهالة، وما أحاط بالعمل الدعوي من غموض في بعض مفاهيمه، وخلل في بعض أصوله، واضطراب في مناهجه، وقصور في أساليبه، وجمود في وسائله، وخطورة في نوازله، وعقبات عملية في طريقه تهدف إلى وأده تارة، وتشويهه وتعويقه تارة أخرى، وقامت في العصر الحديث نهضة دعوية، وتيارات إسلامية، وعُرفت المؤسسات الدعوية والإعلامية، وتأسست الكليات الدعوية، والأقسام العلمية في الجامعات الشرعية، كلُّ ذلك خدمة لقضية الدعوة، ولا جرم أنَّ تدوين هذا العلم كان في أوله قاصراً محدوداً، ثُمَّ تكامل واجتمعت أجزاؤه، واتضحت أركانه، فاستوى على سوقه، وأصبح علماً قائماً براسه شأنه شأن بقية العلوم الشرعية الأخرى، وبدأ علم أصول الدعوة يُتداول بهذا الاسم، وتُكتب فيه كتب ودراسات، وتُعدُّ في تأصيله مداخل، وتُدرَّس الدعوة من مختلف جوانبها: فقهاً وتاريخاً ومنهجاً وخططاً ووسائلَ وأساليب.

ثانياً: فضل علم أُصُول الدعوة:

لمَّا كانت الدعوة إلى الله تعالى من أشرف الأعمال وأنفعها عند الله، فإنَّ علم أصولها من أشرف العلوم وأنفعها، وكل فضل ثبت للدعاة عموماً فأرباب العلم والبصيرة بأصول الدعوة وفقهها لهم منه نصيب، ومن ذلك:

١- إنَّ وظيفة الداعية أشرف الوظائف على الإطلاق؛ لأنَّها عمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أشرف البشر، وكفى بذلك فضلاً وفخراً وشرفاً، وعظم الوظيفة دليل على عظم صاحبها.

٢- الدعاة هم خير هذه الأمة على الإطلاق، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾[آل عمران:١١٠].

٣- الدعاة إلى الله موعودون بالفلاح في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[آل عمران: ١٠٤].

٤- الدعاة قولهم في مضمار أحسن الأقوال، وكلامهم في التبليغ أفضل الكلام، قال الله جلَّ جلاله: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[فصلت:٣٣]، ففي هذه الآية استفهام تقريري بمعنى النفي: أي لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى توحيد الله وطاعته، ولا أحد أحسن كلاماً ولا طريقةً ولا حالةً ممَّن دعا إلى الله، بتعليم العلم النافع، وترغيب الناس في مكارم الأخلاق، ويدخل في هذه الآية كل مَنْ دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق المشروعة.

٥- الدُّعاة إلى الله يشملهم الله برحمته الغامرة، ويخصهم بنعمته الفائقة، قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[التوبة:٧١].

٦- الدُّعاة إلى الله أجرهم مستمر، ومثوبتهم دائمة، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ: ((**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً**))، رواه مسلم.

٧- إنَّ عمل الدعاة هداية الناس، وهو من خير ما يُنال به الأجر والثواب، فهو خير من إنفاق الاموال النفيسة، كما جاء في حديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر: ((**فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**))، متفق عليه، وكفى بذلك فخراً وخيرية.

ثالثاً: أهمية علم أُصُول الدعوة:

إنَّ لتعلم أُصُول الدعوة وممارسته أهمية كبيرة، وفيما يأتي بيان ذلك:

١- معرفة الطريقة النَّبويَّة في إقامة الدين، وكيفية الدعوة إلى الإسلام بشموله: عقيدة وشريعة، ديناً ودولة، والأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية من غير إفراط ولا تفريط.

٢- معرفة الطرق المخالفة للطريقة النَّبويَّة، وفي مقدمتها طريقة مَنْ اتخاذ من القوة العنف المسلح وسيلة إلى ذلك.

٣- تحصيل البصيرة في حال المدعوين على اختلاف أصنافهم وأحوالهم، ومعاملة كلٍّ بما يليق.

٤- تعلم أصول العمل التربوي الفردي والجماعي، وممارسة التربية والتزكية بمراحلها وخصائصها وضوابطها، بما يسهم في بناء الشخصية الإسلامية الصالحة.

٥- اتخاذ القرارات الملائمة بشأن أولويات الدعوة في حدود الزمان والمكان، مما يُعين على تحقيق الأهداف.

٦- حماية الدعوة من إلحاق الضرر بها داخلياً أو خارجياً، واستبانة سبيل المجرمين، وردّ كيد الكائدين.

٧- العمل على تكامل الأعمال الدعوية، والتنسيق بينها، والجمع بين مجهوداتها، والإصلاح بين أربابها.

رابعاً: ثمرة علم أصول الدعوة:

إنَّ ثمرة علم أُصُول الدعوة المرجوة تتمثل بتحقيق غايات الدعوة وأهدافها، سواء أ كانت دنيوية أم أُخروية، ويمكن إيجاز أبرز ثمار تعلم هذا العلم وممارسته عملياً بالآتي:

١- إحياء الإسلام في نفوس أبناء الأمة الإسلامية، ونشره في العالم أجمع.

٢- دحض العقائد الباطلة، والأفكار الزائفة، والسلوكيات المنحرفة، وإظهار السنة وقمع البدعة.

٣- اتخاذ المواقف المناسبة من المنكرات القائمة دفعاً أو تحييداً، مع النظر إلى العواقب والمآلات.

٤- إقامة الحُجَّة، وتمييز الجاهلين والمعاندين، فتستبين سبيل المجرمين، ليعامل كلٌّ بما يلق بحاله.

٥- استكمال عدة النصر المبين، وتحقيق العزة والتمكين للأمة الإسلامية، وبعثها في مواجهة أعدائها.

٦- إقامة الدين، بإعلاء كلمة التوحيد، وتطبيق الشريعة الإسلامية، واستئناف الحكم بها، والتحاكم إليها.

٧- الدعوة صمام أمان، وحبل نجاة للمجتمع، بها ينال المجتمع رضى الله تعالى، فيفوز بسعادة الدنيا والآخرة، وبخلافها يظهر الكفر والضلال، وينتشر الفساد، فتحلّ نقمة الله تعالى وغضبه، نسال الله تعالى العفو العافية.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين

وصَلَّى الله وسلَّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين